**ثامنا: المدرسة الخليلية الحديثة لعبد الرحمن الحاج صالح**

**توطئة**

هي مدرسة أصيلة، نسبة إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي[[1]](#endnote-1)\*، تنهل من التراث اللغوي العربي يتزعمها عالم اللسانيات العربية عبد الرحمن الحاج صالح(1927- 2017م)، قرأ ما تركه الخليل من تنظيرات ودراسات لغوية مستعينا في ذلك بخبرته الواسعة في اللسانيات الحديثة على اختلاف مدارسها، وبما لديه من معرفة باللغة وببنيتها، وقد استخرج من قراءته هذه بعص المفاهيم والمبادئ، معتمدا عليها في إنشاء نظرية ثانية بالنسبة للنظرية الخليلية، ما يمكن أن نسميه Métathéorie، وهي نظرية تنافس التوليدية التحويلية في العودة إلى التراث اللغوي العربي، وفي محاولتها تغطية النقص الذي يعتريها في دراسة اللغة[[2]](#endnote-2)1.

1. **منهج المدرسة**

بيّن الدكتور الحاج صالح أن هناك نحوا عربيا أصيلا تركه اللغويين القدامى وحصره في القرون الأربعة الأولى من الهجرة، وبيّن أن النحو العربي الخليلي لا يقتصر على التحديد بالجنس والفصل(أي باكتشاف الصفات المميزة) وبالتالي فهو لا يكتفي بعملية الاشتمال بل يتجاوزها بإجراء الشيء على الشيء، أو حمل العنصر على الآخر، أي بجعل علاقة مباشرة بين العناصر التي توجد مجموعتين على الأقل لاستنباط البنية التي تجمعهما جميعا. مع الأخذ بعين الاعتبار تكافؤ الكلمات وانتظامها على المحورين التركيبي والاستبدالي، والفئة اللغوية عندهم ليست مبنية على الكيف فقط، بل على الكم أيضا، أشار إلى ذلك الرضي الاستراباذي في حديثه عن الصيغة بقوله:«المراد ببناء الكلمة وزنها وصيغتها وهيئتها التي يمكن أن يشاركها فيها غيرها وهي عدد حروفها المرتبة وحركاتها المعينة وسكونها مع اعتبار الحروف الزائدة والأصلية كل في موضعه»[[3]](#endnote-3)2. ومن ثمة فعلماء اللغة قديما انتهجوا منهجا علميا في دراسة اللغة قائم على المشاهدة والاستقراء والاختبار، والصياغة العقلية. وقد وضع النحو العربي على أسس ابستمولوجية مغايرة لأسس اللسانيات البنيوية وتحديدا بالنسبة للمبادئ العقلية التي بنيت عليها تحليلاتهم، وكذا طريقة البحث في اللغة؛ فالعرب الأوائل لجؤوا إلى السماع ودونوا كلام العرب الذي أطلقوا عليه(الفصحى)، انشغلوا به وتركوا غيره، لاسيما ماتعلق منه بلغة القرآن الكريم. وكل كلام للعرب يتطرق اللغوي إلى وصفه لابد أن يجري على قوانين اللغة الأساسية وأصول تأديتها[[4]](#endnote-4)3.

1. **مفاهيم المدرسة الخليلية الحديثة**

أهم المبادئ والمفاهيم التي اعتمدها الباحثون العرب في دراستهم وتحليلهم للغة نذكر:

1. **اللسان وضع واستعمال**:

اللسان وضع من الأوضاع التبليغية، والمقصود بالوضع هو النظام المنسجم من الأدلة الصوتية ذوات المعاني، واللسان راجع إلى جماعة من الناطقين به ليس إلى فرد واحد، بدليل أنه ظاهرة اجتماعية، والوضع يكون باتفاق الجماعة في إلحاق الكلمة بالدلالة المقصودة. أما الاستعمال فهو نظام من الأدلة الموضوعة لغرض التبليغ واستعمال فعلي لهذا النظام في واقع الخطاب، وقد ركز العلماء الأوائل أمثال الخليل على هذا الاستعمال للغة من قبل الناطقين بها، ومن ثمة يعتبر هذا الاستعمال مقياسا أول في بناء منهج للبحث اللغوي. فالدراسة العلمية للغة عند العرب القدامى تعتمد على الفارق بين اللسان والكلام، أو ما يطلق عليه الوضع والاستعمال[[5]](#endnote-5)4، والاستعمال الفردي للغة يختلف عن وجودها الوضعي الجماعي الأول.

1. **مفهوم الاستقامة:**

الاستقامة هي الاعتدال والسلامة في التركيب، وقد أورد سيبويه رأيه فيها بقوله:« فمنه(أي الكلام) مستقيم حسن ومحال ومستقيم كذب ومستقيم قبيح وماهو محال كذب. ويقول أيضا: وأما المحال فهو أن تنقض أول كلامك بآخره فتقول: (أتيتك غدا)...وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك: (قد زيدا رأيت)»[[6]](#endnote-6)5. ويمكن التفصيل في رأي سيبويه كما يلي: «سيبويه على إثر الخليل هو أول من ميز بين السلامة الراجعة إلى اللفظ، المستقيم الحسن أو القبيح، والسلامة الخاصة بالمعنى: المستقيم/ المحال. ثم ميز أيضا بين السلامة التي يقتضيها القياس(أي النظام العام الذي يميز لغة من لغة لأخرى) والسلامة التي يفرضها الاستعمال الحقيقي للناطقين (وهذا معنى الاستحسان وهو استحسان الناطقين أنفسهم): مستقيم/حسن. فعلى هذا يكون التمييز بهذه الكيفية:

* **مستقيم حسن**: سليم في القياس والاستعمال.
* **مستقيم قبيح**: خارج عن القياس، وقليل في الاستعمال وهو غير لحن.
* **محال**: قد يكون سليما في القياس والاستعمال، ولكنه غير سليم من حيث المعنى»[[7]](#endnote-7)6.

ومن ثمة جاء التمييز بين اللفظ والمعنى، فإذا فُسِّر اللفظ بالنظر إلى معناه يكون التحليل ذا طابع معنوي(sémantique)، أما إذا اقتصر التفسير على اللفظ دون اعتبار المعنى فالتحليل يكون لفظيا نحويا(sémiologique-grammatical)، على أن التخليط بين الاعتباين غير جائز، ومن الخطإ والتقصير أن ننظر إلى اللفظ دون المعنى، بل النظر إلى اللفظ أولى لأنه هو الذي يحمل المعنى[[8]](#endnote-8)7.

1. **مفهوم الانفصال والابتداء**

هذا المفهوم يختص بالمقام الذي ينطلق منه النظر في الكلام، فـ«لا يكون اسم مظهر على حرف أبدا، لأن المظهر يسكت عنده وليس قبله شيء، ولا يلحق به شيء، والذي يسكت عنده وليس قبله شيء هو الاسم الذي ينفصل ويبتدئ. وبالفعل كان المنطلق عندهم كل ما ينفصل ويبتدئ، وهي صفة الانفراد، ويمكن أن يكون بذلك الأصل لأشياء أخرى تتفرع عليه، ولهذا فيجب أن ينطلق من أقل ما ينطق به، مما ينفصل ويبتدئ(ينفرد) وهو الاسم المظهر بالعربية، وكل شيء يتفرع عليه ولا يمكن لما في داخله أن ينفرد فهو بمنزلته، ولهذا سمى النحاة الأولون هذا بالاسم المفرد(...) فالانفصال والابتداء يمكِّن الباحث من استكشاف الحدود الحقيقية التي تحصل في الكلام، وبهذا ينطلق الباحث من اللفظ(وحدة لفظية) لا يحددها إلا ما يرجع فقط إلى اللفظ وهو الانفصال والابتداء، و(وحدة إفادية) لأنها يمكن أن تكون جملة مفيدة(فقد اكتُشِفت في الكلام الحقيقي). وعلى هذا فهي تحتل مكانا يتقاطع فيه اللفظ مع المعنى أو البنية بالإفادة»[[9]](#endnote-9)8. ويمكن تقديم مثال لتوضيح هذه العمليه في التحليل، كما أورده الباحث:

«يختبرون مثلا قطعة صوتية (كتاب) بحملها على قطع أخرى لها منزلتها أي: "تنفصل وتبتدئ"، فعبارات أخرى مثل(بكتاب)و (بالكتاب) و(كتاب كبير)، كل واحدة منها يمكن أن تكون كلاما مفيدا، ولا يمكن أن يوقف على جزء منها. ثم يرتبون هذه العبارات على أساس تفريعي؛ أي على أن بعضها أصل لبعض، والأصل عندهم هو ما يبنى عليه، وبالتالي ما ليس فيه زيادة. فالأصل هنا هو كتاب، وتتفرع عنه العبارات الأخرى التي هي مكافئة لها (بمنزلتها)من حيث الانفصال والابتداء(الانفراد) بإلحاقها ما يسمونه بالزوائد، وهي أداة التعريف، وحرف الجر، والإعراب والتنوين إذا لم يدخل(ال)، أو المضاف إليه وأخيرا الصفة. فكل هذه الزوائد تدخل على حد الاسم»[[10]](#endnote-10)9.

1. **مفهوم الموضع والعلامة العدمية:**

يقول عبد الرحمن الحاج صالح لتوضيح هذا المفهوم:«المواضع التي تحتلها الكلم هي خانات تحدد بالتأويلات التفريعية، أي الانتقال من الأصل إلى مختلف الفروع بالزيادة التدريجية، وهذه الزيادة هي نفس التحويل(في هذا المستوى)، وإذا أردنا أن نعبر عن هذا باصطلاح الرياضيات فيمكن أن نقول بأن ما يظهر بالتفريع في داخل المثال المولد للفظة هي عبارات متكافئة حتى ولو كانت بعضها أطول بكثير من البعض الآخر وذلك لا يخرجها عن كونها لفظة.

ومن ثمة يتحصل اللغوي على المثال المولد للفظة بإثبات التناسب أو التناظر بين هذه الوحدات(أو حمل أو إجراء كل منها على الآخر)، ويتم هذا الإجراء بالتحويل الذي هو هنا الزيادة، ولهذه العملية عكسها وهو(رد الشيء إلى أصله) على حد تعبير النحاة، وبهذه العمليات يتحدد موضع كل عنصر في داخل المثال كما سبق أن قلنا. ولابد من الإشارة إلى أن الموضع شيء وما يحتوي عليه شيء آخر، وهذه مفاهيم رياضية محضة وهي أهم صفة يتصف بها التحويل الخليلي). ويعبر عن هذا النحاة بأن الزوائد تدخل وتخرج وهو ما يتصف به الإدراج الذي يتم بالوصل، وليس كالإدراج الذي يحصل بالبناء، فالوصل يحصل في داخل اللفظة، أما البناء فهو يحدث في داخل الكلمة( وكذلك في داخل النواة التركيبية).

إن خلو الموضع من العنصر له ما يشبهه وهو "الخلو من العلامة أو تركها، وهو ما سماه الأستاذ بالعلامة العدمية، وهي التي تختفي في موضع لمقابلتها لعلامة ظاهرة في موضع آخر، وذلك كجميع العلامات التي تميز الفروع عن أصولها(المفرد والمذكر والمكبر لها غير ظاهرة بالنسبة للجمع والمثنى والمؤنث والمصغر)، وكذلك هو الأمر بالنسبة للعامل، فإن العامل الذي ليس له لفظ ظاهر هو الابتداء. وهذاالمفهوم وإن كان موجودا في اللسانيات الحديثة إلا أنه لم يُستغل الاستغلال الكافي والمناسب، فلابد أن يكون مرتبطا بالموضع داخل بنية معينة ذات عرض وطول أي في البنية التي سميت بالمثال»[[11]](#endnote-11)10.

وخلاصة القول أن الموضع هو السياق الذي يحل أو يرد فيه عنصر من العناصر المؤثرة، وإذا خلا ذلك الموضع من العنصر أصبح علامة عدمية، ويمكن التمثيل للموضع والعلامة العدمية على مستوى اللفظة، ويتعلق الأمر بالعلامات التي تميز الأصول عن الفروع(المذكر والمؤنث/ المفرد والمثنى والجمع).

1. **مفهوم المثال:**

هذا المفهوم عربي لا يوجد له مقابل في اللسانيات الغربية، وهو الحد الصوري الإجرائي الذي به تحدد العمليات المحدثة للوحدات، ومن ثم المحددة لها من وجهة نظر النحو تنتج عنه صورة تفريعية طردية عكسية تنطلق من أصل إلى ما لا نهاية من فروع، يسميها نحاتنا المتقدمون مثالا(يُجمع على مُثُل غالبا)، والمثال ليس خاصا بهذا المستوى من تحليل الكلام الذي هو (اللفظة) بل هو موجود في كل المستويات، في أدناها كمستوى الكلمة(وهو المكوِّن للفظة) ومستوى التراكيب الذي هو فوق اللفظة. والنحو العربي كله مُثُل لأنه الصيغ والرسوم، وهو شيء صوري تُبنى عليه كل وحدات اللغة إفرادا وتركيبا. ومثال الكلمة هو بناؤها ووزنها، لأنه يمثل بكيفية صورية مجردة الهيئة التي يكون عليها هذا الجزء من اللفظة الذي يسمى بالكلمة. وبما أن الكلمة العربية ناتجة عن قسمة تركيب للحروف الصوتية، لكن على مُثُل معينة محدودة العدد، جعل النحاة الأولون لكل حرف من الحروف الأصول؛ الأول والثاني والثالث رموزا هي(الفاء والعين واللام) (فعل)، هذا بالنسبة للثلاثي، وزادوا عليها الزوائد هي بذاتها دون تجريدها إلى رموز(لأنها ثوابت أما الأصول فمتغيرات)، ثم هذه المثل فأحصى منها سيبويه ما يقرب من300، وأحصوا بعده أكثر من ألف ومائتين، وأكثرها قليلة الاستعمال. وينبه الأستاذ الحاج صالح إلى أن مثال اللفظة ومثال الكلمة شيء لا يعرفه من اللسانيين إلا من اطلع عللى ما كتبه النحاة العرب[[12]](#endnote-12)11.

1. **مفهوم العامل:**

ليست " اللفظة" الوحدة الصغرى التي تتركب منها التراكيب، فلهذا المستوى وحدات أخرى من جنس آخر أكثر تجريدا، وفي العمليات الحملية الإجرائية يحمل النحاة من الكلام بسيطه ويحولونه بالزيادة مع الإبقاء على النواة، فلاحظوا أن الزوائد على اليمين تغير اللفظ والمعنى، بل تؤثر وتتحكم في بقية التركيب، كالتاثير في أواخر الكلم من ناحية الإعراب، فتحصلوا بذلك على مثال تحويلي يتكون أيضا من أعمدة وسطور مثل:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| /  إنّ  كان  حسبتُ  أعلمتُ عمر | زيدٌ  زيداً  زيدٌ  زيداً  زيداً | قائمٌ  قائمٌ  قائماً  قائماً  قائماً |
| 1 | 2 | 3 |

ففي العمود الايمن يدخل عنصر قد يكون كلمة او لفظة بل تركيبا فيؤثر على بقية التركيب ولذلك سمي(عاملا)، ثم لاحظوا ان العنصر الموجود في العمود الثاني لا يمكن بحال أن يقدم على عامله، فهو عند سيبويه المعمول الأول(م1) ويكون مع عامله زوجا مرتبا، أما المعمول الثاني(م2) فقد يتقدم على كل العناصر إلا في حالة جمود العامل (مثل"إنّ ")، وقد يخلو موضع العامل من العنصر الملفوظ(المشار إليه بـ /)، وهو الذي يسمونه بالابتداء. وقد حملوا التراكيب التي تتكون من لفظة فعلية (غير ناسخة) على هذا المثال واكتشفوا عند تطبيق هذه المجموعة على الأولى أن الفعل(غير ناسخ) هو بمنزلة هذه العوامل لانه يؤثر في التراكيب، وأن المعمول الثاني في هذه الحالة هو المفعول به، وأثبتوا أيضا أن موضع(م1) و(م2) يمكن أيضا أن تحتلها كلمة واحدة أو لفظة بل وتركيب مثل:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| /  رأيْــ  رأيْــ | أن تصوموا  تُ  تُــ | خير لكم  زيداً  كَ |

فيتبين بهذا ان العناصر التركيبية هي عناصر خاصة مجردة، كما أن هناك عناصر أخرى تدخل وتخرج(علاقتها بغيرها علاقة وصل)، على هذه النواة التركيبية وهي زوائد مخصصة كالمفاعيل والحال وغيرها(خ)، ويمكن ان نمثل للعلاقات القائمة بين هذه الوحدات التركيبية بهذه الصيغة:

بناء وصل

[(ع م1)± م2]±خ [[13]](#endnote-13)12

ويعتبر العامل نقطة هامة واساسية عند النحاة العرب له تأثير على المعنى والمبنى، حيث يرتبط في النظرية الخليلة الحديثة بتركيب الجملة، وهو المحرك الحقيقي لعناصرها والمسؤول عن ضبط الترتيب والتماسك داخلها، كما يحدد وظيفة الجملة والحركات الإعرابية المناسبة لها.

1. **مفهوم الإطالة والتكرار:**

لاحظ اللغويون العرب- وبعدهم تشومسكي- أن المواضع البنيوية للكلام أمر مهم، فالعامل يمكن أن يحتوي على كلمة مثل(إنّ)و(كان)، ويمكن أن يحتوي على لفظة مثل(حسبت)، أو حتى على تركيب مثل(أعلمت عمر). فهناك ظاهرة تشمل جميع اللغات البشرية وهي تداخل مستوياتها، مثل تضمّن أو احتواء وحدة على المستوى الأوسط(مستوى اللفظة) لوحدات من المستوى الأعلى الخاص ببناء الكلام،أو لفظة في موضع كلمة، فهذه الظاهرة تفطن إليها تشومسكي، سماها(récurrence) وعرفها بأنها قدرة الشيء على التكرار إلى ما لا نهاية، بينما سماها سيبويه( الإطالة)[[14]](#endnote-14)13.

1. **مفهوم القياس:**

هو تلك العملية المنطقية الرياضية التي تسمى التفريع من الأصل على مثال سابق، وهو تكافؤ العناصر في البنية لا في شيء آخر، ومن ناحية لغوية غير لغة النحو فقد تأثر بعلم الكلام والفلسفة، وصار الجامع فيه العلة ومفهوم العلة موجود في النحو العربي الأصيل، لكن كعامل اضطراب، كمبرر خارجي (خارج البنية اللغوية) للعناصر الشاذة عن بابها[[15]](#endnote-15)14.

1. **مفهوم الأصل والفرع:**

النحو العربي كله مبني على هذين المفهومين الرياضيين، حيث ميز النحاة بين الأصل باعتباره الثابت المستمر الذي لا يتغير، والفرع بأنه الأصل مع الزيادة وفق طريقة علمية معينة من خلال حمل الأشياء على بعضها، بغرض بيان التكافؤ بينها في البنية، وينتج عنه كيان جديد لكن الجامع بين الاثنين هو البنية. كما اهتم الأوائل من نحاة العرب بالنظام في سياق الكلام والآداء الفعلي[[16]](#endnote-16)15 على نحو:

* رافقت زميلة لي.
* رافقت زميلتي.
* رافقتني زميلتي.
* رافقت مريم إلى بيتها.
* رافقت مريم نحو بيتها.

فهذه المفاهيم هي التي قرأ بها صاحب النظرية الخليلية الحديثة التراث العربي الأصيل، باستخدامه لبعض الآليات التي وضعها قدامى اللغويين والإضافة إليها، سعيا لكشف مفاهيم جديدة تساعد على سبر أغوار العربية وإزاحة الستار عن غوامضها وأسرارها في جانبها التركيبي والنحوي خاصة، ولأجل استيعاب خصائصها التي تميزها عن غيرها من اللغات.

1. \* «**أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميمي الفراهيدي الأزدي**: نابغة العرب، وسيد أهل الأدب، مبتكر علم العروض والمعجمات، وصاحب الشكل لعربي المستعمل الآن». التواتي بن التواتي، المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، دار الوعي للنشر والتوزيع الجزائر، ط2 2012، ص85. [↑](#endnote-ref-1)
2. 1 ينظر: المرجع نفسه، ص ص 85- 89. [↑](#endnote-ref-2)
3. 2 الشيخ رضي الدين الاستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب، 1/2، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ص 90. [↑](#endnote-ref-3)
4. 3 ينظر: التواتي بن، المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، ص ص 89-92. [↑](#endnote-ref-4)
5. 4 ينظر: المرجع نفسه، ص94، 95. [↑](#endnote-ref-5)
6. 5 عبد الرحمن الحاج صالح، النظرية الخليلية الحديثة –مفاهيمها الأساسية- كراسات المركز سلسلة يصدرها مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية بالجزائر، العدد 4 ،2007، ص30. [↑](#endnote-ref-6)
7. 6 المرجع نفسه، ص ص 30، 31. [↑](#endnote-ref-7)
8. 7 ينظر: المرجع نفسه، ص31. [↑](#endnote-ref-8)
9. 8 المرجع نفسه، ص 32. [↑](#endnote-ref-9)
10. 9 التواتي بن التواتي، المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، ص101. [↑](#endnote-ref-10)
11. 10 المرجع نفسه، ص ص 104، 105. [↑](#endnote-ref-11)
12. 11 ينظر: المرجع نفسه، ص ص 105، 106. [↑](#endnote-ref-12)
13. 12 ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الجزء الأول، موفم للنشر الجزائر 2012، ص ص 222- 224. [↑](#endnote-ref-13)
14. 13 ينظر: التواتي بن التواتي، المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، ص112. [↑](#endnote-ref-14)
15. 14 ينظر: المرجع نفسه، ص ص120-122. [↑](#endnote-ref-15)
16. 15 ينظر: المرجع نفسه،ص ص 123- 125. [↑](#endnote-ref-16)